صحارى

العدد ٥ رمضان ١٤٢٤هـ، نوفمبر ٢٠٠٣م

العنوسة تتفشى في عالم الأنوثة

زينة النجدية:
فيروز ولؤلؤ ومرجان

سوق حجْر اليمامة:
ذاكرة التاريخ في حاضر مستبشر

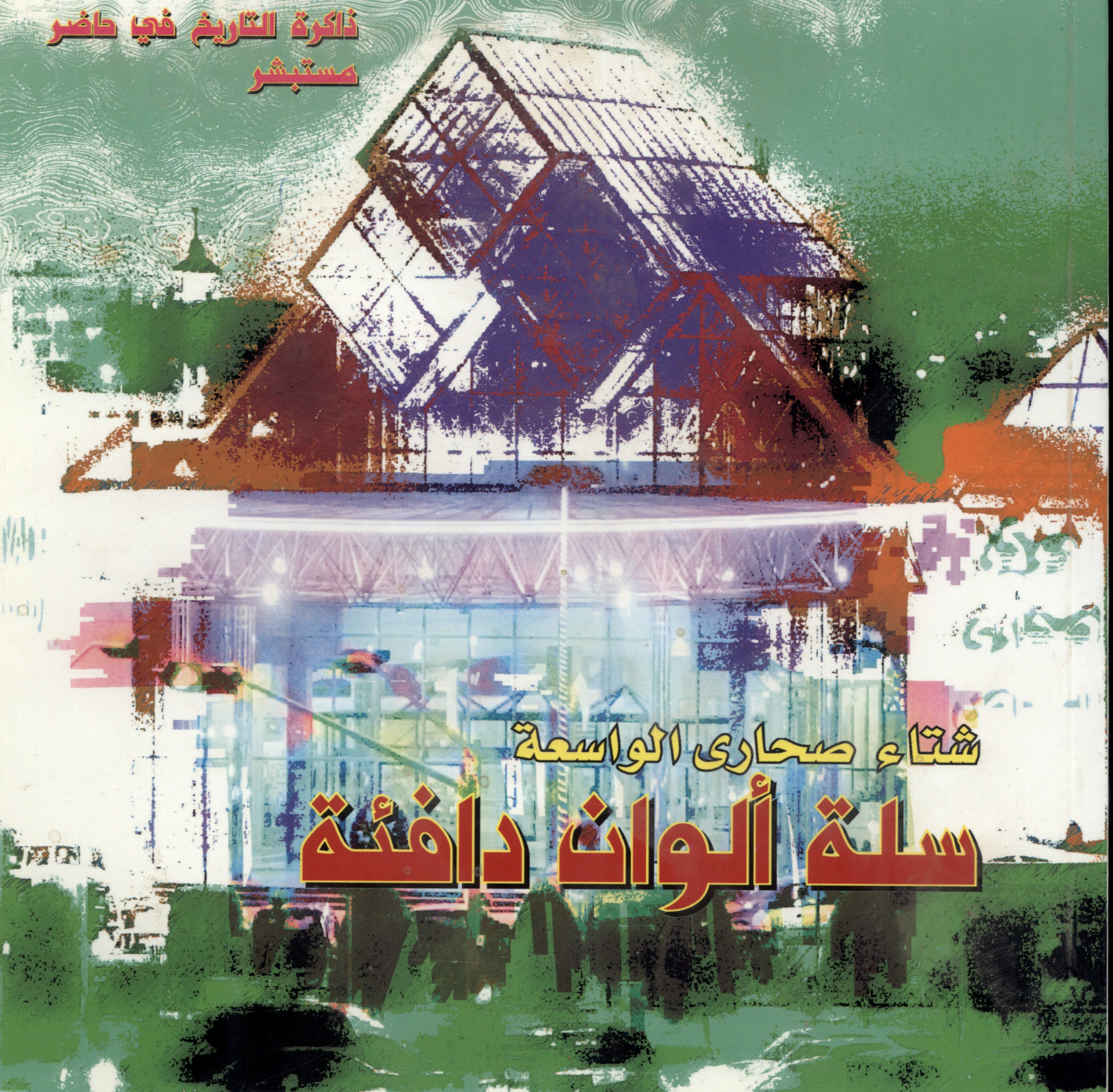

شتاء صحارى الواسعة
سلة ألوان دافئة

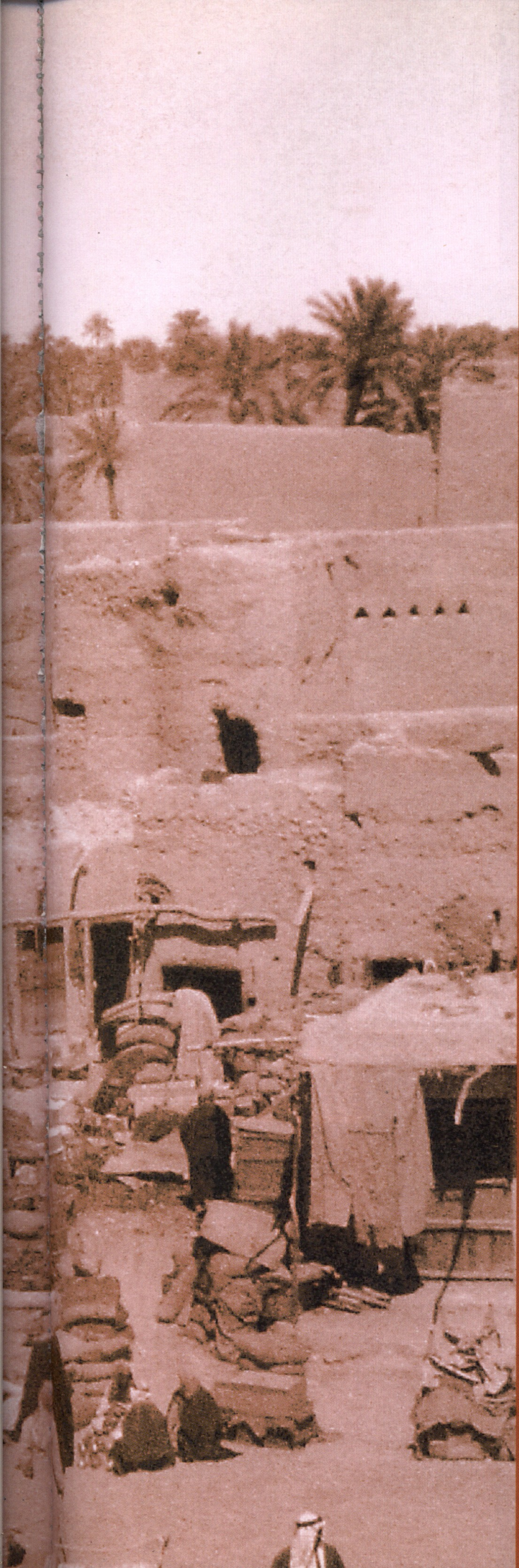

سوق حَجْر اليمامة:

ذاكرة التاريخ في حاضر مستبشر

لا يمكن قراءة تاريخ الرياض من غير سوقها القديم، ولا يتأتى استشراف المستقبل إلا باستدعاء ذاكرة المكان التي يسجل بعض صفحاتها عبدالرحمن ابن عبدالله المشيقر.

يمثل السوق مظهرًا من مظاهر الحضارة في كل بلد، وفي كل عصر لأنه المقياس الفعلي الذي يصور الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وهو من أهم المطالب اليومية في حياة الفرد والمجتمع. وقد لفتت ظاهرة الأسواق انتباه الباحثين في الجوانب الحضارية، وحظيت بدراسات كثيرة عن الأسواق في بلدان الحضارة الإسلامية من حيث: تاريخها، وتخطيطها، ونظامها، ومراحل تطورها، وما يتصل بها من حركة تجارية.

وظاهرة الأسواق القديمة في جزيرة العرب لم تدرس دراسة مستقلة تبين تاريخها ودورها الاقتصادي والاجتماعي ومراحل تطورها، خصوصًا أنه اشتهر فيها عدد من الأسواق الدائمة والموسمية، وكان بعضها يصاحبها فعاليات ثقافية وأمسيات شعرية مثل أسواق عكاظ، ومجنة، وذي المجاز، وكل هذه الأسواق في غرب الجزيرة، وسوق دومة الجندل في الشمال، وسوق هجر في الشرق، وسوق حباشة في الجنوب. أما في اليمامة (المعروفة الآن بنجد) في وسط الجزيرة فقد اشتهر فيها عدد من الأسواق التجارية المهمة التي من أشهرها سوق الفلج (الأفلاج)، حيث بلغت محلات هذا السوق ٤٠٠ دكان، وكان شديد التحصين. وكذلك سوق الخضرمة، وسوق الحائط وحجاز وكلاهما بالفقي وسوق حجر وغيرها.

تاريخ السوق وجذوره:

يعد السوق القديم الواقع وسط مدينة الرياض (منطقة قصر الحكم الآن) امتدادًا لنشاط سوق حَجْر (قاعدة اليمامة) الذي يعد من أعرق الأسواق التجارية في الجزيرة العربية وأشهرها في الجاهلية وصدر الإسلام. ويحدد بعض الباحثين موقع سوق حجر بأنه قام على أنقاض سوق المقيبرة وما جاوره من الشمال. باتجاه منطقة قصر الحكم . وقد اكتسب السوق أهميته من توسطه الجزيرة العربية ووقوعه على الطرق التجارية الموصلة بين أطراف الجزيرة. بالإضافة إلى الشهرة التي حققتها اليمامة في الإنتاج الزراعي والصناعي، فقد اشتهرت اليمامة بجودة المحاصيل الزراعية مثل: الحنطة والشعير والدخن، وكذلك التمور. كما اشتهر بعض قراها بصناعة السيوف والسهام والقسي والرماح وغيرها.

وسوق حَجْر من الأسواق المفتوحة طوال العام، إلا أن له موسمًا سنويًا يكثر رواده فيه، ويبدأ هذا الموسم من يوم عاشوراء (عشرة محرم) حتى آخر شهر المحرم من كل

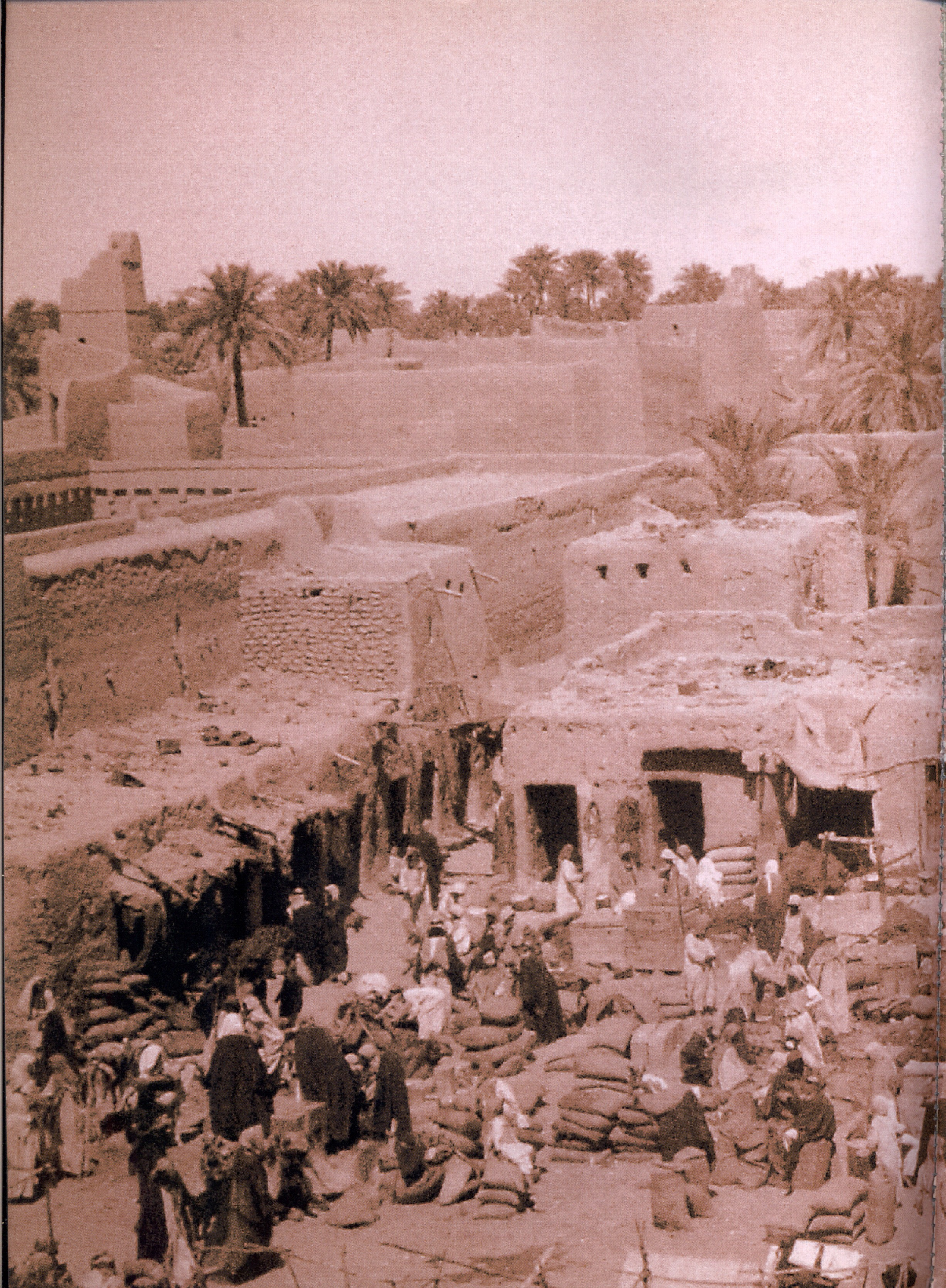

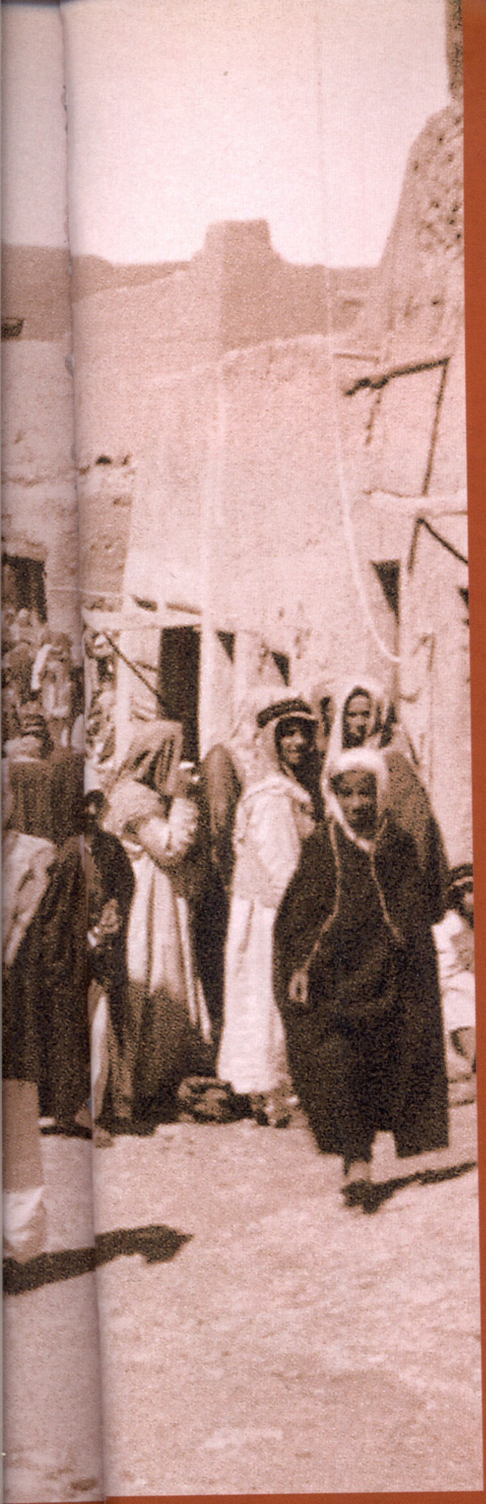

عام، ويقام على هامشه المفاخرة وإنشاد الشعر.

وكان السوق حافلاً بالحركة التجارية، وقد شهد إقبالاً على البيع والشراء من قبل الرجال والنساء، وكانت أم الشاعر المعروف جرير تبيع في سوق حَجْر باليمامة، وكانت بلادهم في مرأة (مرات الآن) غرب مدينة الرياض. وقد انقطعت أخبار سوق حجر في آخر العصر الأموي، وشحت المصادر بذكره، حتى أعيد إليه نشاطه في العصر الحديث وبدأ يتردد ذكره في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي باسم سوق الرياض.

موقع (السوق)

يقع (السوق) وهذا اسمه في الرياض - ويقال له (الموسَم) ويسمى (سوق الديرة) أيضًا - وسط مدينة الرياض وقد تم تطوير هذا السوق والمنطقة المحيطة به مؤخرًا وأصبح يعرف الآن بمنطقة قصر الحكم الذي يضم عددًا من المرافق الحكومية، بالإضافة إلى الإبقاء على معالمه القديمة مثل قصر المصمك، وجامع الإمام تركي بن عبدالله، وساحة الصفاة، وكذلك بعض الأسواق المطورة مثل المعيقلية وأشيقر.

وقد كان هذا السوق يتكون من مجمع أسواق متخصصة ويقابله ساحة مكشوفة يجلب إليها البضائع والمواشي والحطب ونحوها، ونتيجة التوسع السريع الذي شهدته مدينة الرياض، فقد أزيلت جميع هذه المرافق وأعيد بناؤها وفق شكلها القديم تقريبًا مع توسعتها. والجزء الوحيد الذي تم المحافظة عليه هو سوق الزل، وهو لا يزال يمارس نشاطه على الطريقة التقليدية. ويحتل هذا السوق أهمية تاريخية خاصة، ويعد محطة توقف رئيسة في برنامج الزيارات السياحية، خصوصًا لدى الجاليات الأجنبية والسياح الغربيين.

أقسام السوق

اشتهر سوق الرياض القديم بكثرة الأسواق المتخصصة المصطفة بعضها بجوار بعض التي تتمركز في السوق العام، وهي كما يلي:

- سوق التمر: ويباع فيه أنواع التمور، وكل ما يتصل بها أو ما يستخدم في صناعتها مثل: السمن، والإقط، والقهوة وما يلحق بها ونحوها.
- سوق الزل: ويباع فيه الملابس الثمينة كالمشالح الوبر وبشت الصوف المسمى دربوجه (المقصب)، ونصف دربوجه ومكَسر، والقيلانية، ومشالح النساء المعصَّم (المذهب)، وإذا كان غير مذهب يسمى الأدلم (أي أسود سادة) وهي أنواع في الجودة. ويباع فيه أيضًا العود والسلاح والذهب، ويسمى أيضًا سوق الهدّم (الهدوم أي الثياب)، وهذا السوق لا يزال قائمًا بحالته الأولى.
- سوق الصيارفة: وهو عبارة عن ساحة في وسط السوق، ويتبعها دكاكين قليلة وتمارس فيه مهنة الصرافة.
- سوق الخراريز (الخرازين): مكانه جنوب الجامع، وهو من أكبر الأسواق ويباع فيه كل ما يحتاج إلى خرز وأكثر منتجات الجلود مثل: القلص، والغروب والدلاء، والقرب والمحازم، وجبيرة الكسور، والسيور والقتب، وكذلك الأحذية وغيرها، ويرتاده الحاضرة والبادية والفلاحون.
- سوق الحساوية: وهو سوق متأخر افتتح بعد دخول الملك عبدالعزيز الأحساء، حيث أصبح يرتاده أناس ذوو خبرة من أهل الأحساء، وقاموا بتطوير الملابس للرجال في نجد وأضافوا إليها الغالوقة في رقبة الثوب وكذلك الأزرار.
- سوق البَزّ: ويباع فيه الأقمشة وما يتبعها من ملابس جاهزة.
- سوق الصنانيع: ويباع فيه الأواني النحاسية، وتُرَبُّ فيه القدور، ويباع فيه الأدوات التي يحتاج إليها الخراز أو النجار.
- سوق الحريم: أو سوق النساء، ويباع في هذا السوق ما يتصل بالمرأة، وهو من أقدم الأسواق، وهو ملتصق بقصر الحكم من الناحية الجنوبية ويمنع فيه دخول الرجال إلا في حدود ضيقة، ويباع فيه العطارة والأدوية الشعبية والبذور والنباتات التي يستطب بها.
- سوق الحلاقين: وهم ينتشرون في أكثر من مكان، وأشهر مكان لهم يقع غربي الجامع ويمارس في هذا السوق الحلاقة، وكذلك تجرى فيه عملية خلع الأسنان، والحجامة. وكل هذه العمليات يقوم بها أصحاب محل الحلاقة. ومن أشهر الحلاقين آنذاك محمود وكان حلاق الملك عبدالعزيز الخاص، ويمارس الطب الشعبي للأهالي.

ومحمود هذا هو أول من استورد (الطاحونة) في أوائل الخمسينيات، وكانت الطواحين في السابق بدائية تصنع على شكل رحي وعادة ما تكون موقوفة في حجرات داخل بيوت مفتوحة على الشارع، وكانت كثيرة، ويأتي أصحاب الخير لصيانتها ويسمى مكانها بيت الرحى.

وقد أعجب بها الناس واستخدموها بأسعار رمزية فسميت مكينة محمود وسميت الحارة حلة محمود ثم انتشرت المكائن بعد ذلك.

- الجفرة: وهو سوق يتم فيه بيع السَّلَم، والمقايضة، والكتْبِ وهو التورّق (المداينة).
- سوق الطعام: وهو سوق العلف، وأقدم مكان له يقع في غرب جنوب الجامع، ثم انتقل إلى دخنة.
- سوق الحطب: ويباع فيه الحطب والفحم والجلّة، وكان موقعه الأول في ساحة السوق العام، ثم نقل إلى جنوب الرياض.

❖❖❖

أما بيع الجملة فليس له سوق محدد، وإنما يتم ذلك في بيوت التجار بين التجار أنفسهم وبين باعة التجزئة. والبضائع المعتادة هي المواد الغذائية والإبل والأسلحة وغيرها.

كما يوجد مصانع بدائية للحدادة والدباغة والحياكة وأفران الجص الأخضر وغيرها، ومواقع هذه المصانع في أطراف الرياض وخارجها.

وبعد توسع السكان وانتقال كثير من الأسر في القرى النجدية وغيرها إلى الرياض، وتطور الحركة التجارية، افتتح سوق البطحاء، ثم سوق دخنة، وهو جنوب السوق العام. ويقع سوق دخنة خارج السور القديم، ويتميز باتساع مساحته، والدكاكين (المحلات) الموجودة فيه تملكها الحكومة، وقد تم وقفها، وفوقها غرف سكنية كانت رباطًا لطلبة العلم، وكان وكيل محلات الحكومة إبراهيم الشايقي.

كما يوجد بالإضافة إلى السوق العام وسوق دخنة، أسواق مساندة تقع في أطراف الرياض حينذاك ومن أشهر هذه الأسواق:

سوق البديع، وسوق منفوحة، وسوق المصانع، وسوق الباطن، وسوق القرّي وكان يباع فيه الفول، والخبز بالفرن، وكذلك الدخان، وكل هذه المبيعات كانت غير مألوفة في أسواق الرياض القديمة.

وكانت هذه الأسواق تفتتح عند شروق الشمس مباشرة وتغلق عند أذان المغرب مباشرة، وكانوا يوقتون مواعيدهم بافتتاح السوق وبإغلاقه، وتولت الحكومة مهمة إنارة الأسواق وتكليف العسس لحراسة السوق.

وللعسس في السوق نبهة خاصة يرددونها بينهم، ينادي بها بعضهم بعضًا بين الحين والآخر، وقد تولت الشرطة هذه المهمة فيما بعد.

وصف السوق عند الرحالة

يعنى الرحالة، والرحالة الغربيون منهم خاصة، بتسجيل ملاحظاتهم حول كل ما يلفت الانتباه، وكذلك يحرصون على رصد الحياة اليومية للمجتمع في أي بلد يزورونه، وقد سجل عدد من الرحالة انطباعاتهم عن سوق الرياض، ومنهم:

وليم بلجريف، وهو بريطاني، زار الرياض سنة ٩٧٢١هـ الموافق ٢٦٨١م، ووصف سوقها بأنه «كان مليئًا بالنساء والفلاحين الذين يبيعون ما كنا نبحث عنه، وذلك بجانب اللحم، وحطب الوقود والحليب... كان نصف المحلات التي تحوي الأغذية والأواني المنزلية والأحذية قد فتحت أبوابها، ولأنها العاصمة فقد كانت دائمًا مليئة بالغرباء الذين يأتون لأغراض مختلفة.. لكن حشدًا كبيرًا من الناس يجتمع حول محلات اللحم، فالنجديون يأكلون اللحم بكثرة، ولا غرو في ذلك، لأن أسعار اللحم كانت رخيصة.. كان الخروف السمين يكلف خمسة شلنات أو أقل بالعملة الإنجليزية».

أما جيرارد ليتشمان، وهو بريطاني أيضًا، زار الرياض سنة ١٣٣٠هـ الموافق ١٩١٢م، فقد قال «إن الحركة التجارية في البلدة التي تضم ٢٥٠٠٠ نسمة ضعيفة، وعلى الرغم من ذلك فالسوق بالمقارنة بعدد السكان صغير، بينما يقل الطعام وغيره من السلع الغذائية. وتتمثل السلع الغذائية في التمور التي تعد من نوعية جيدة، وتزرع فواكه أخرى مثل: التين، والمشمش، والبطيخ، بينما يزرع البرسيم بين أشجار النخيل. ويوجد بالرياض قليل من الخيول، بينما لا توجد أبقار أو ماعز».

وذكر فيلبي الرحالة البريطاني المعروف الذي زار الرياض أول مرة سنة ١٣٣٧هـ الموافق ١٩١٨م، «أن محلات السوق تعرض مختلف أنواع البضائع والأدوات اليدوية وما إليها، بالإضافة إلى الشاي والبن والسكر والبهارات واللحم والأرز وغيرها من الضروريات، وكذلك بعض السلع الكمالية مثل: البنادق والذخيرة والساعات والمناظير وهلم جرًا... وتسد قطعان الماشية ممر السوق وهي معروضة للمساومة بين الملاك والمشترين الذين يتجولون متنقلين من حيوان إلى آخر بغية الحصول على أقل الأسعار...».

وقد لاحظ الأديب اللبناني أمين الريحاني الذي زار الرياض سنة ١٤٣١هـ الموافق ١٩٢٢م، «أن الذين يمارسون النشاطات التجارية ليسوا من أصحاب المتاجر في السوق، ولكن من الباعة المتجولين (أي الدلالين) الذين ينتشرون في كل مكان في شبه الجزيرة العربية... وعلى الرغم من أن البائع المتجول له حرية البيع في السوق من شروق الشمس حتى غروبها إلا أنه كانت هناك فترات يكف فيها عن نشاطه وصياحه، ويلزم الصمت، ويجب عليه مراعاتها بعناية.. تلك الأوقات يهيمن عليها المؤذن خمس مرات في اليوم... بمجرد أن ينطلق صوت المؤذن مناديًا المسلمين للصلاة يتوقف الباعة المتجولون حالًا، ويقفل السوق ويطبق الصمت العميق على المدينة».

أما ليوبولد فايس (محمد أسد) وهو نمساوي، أسلم وتسمى باسم محمد أسد وعرف به، وقد زار الرياض سنة ١٣٤٩هـ الموافق ١٩٣٠م، فإنه يقول «إن هنالك حشدًا كبيرًا من الناس في منطقة السوق وهو ليس أمرًا مستغربًا إذا أخذنا في الحسبان أن كل الناس يقضون جزءًا كبيرًا من وقت فراغهم بالقرب من القصر. وإذا كنت مقيمًا في الرياض فإنك تأتي إلى السوق ليس من أجل البيع والشراء وإنما فقط لمقابلة الأصدقاء وتمضية جزء من يومك».